قراءة نقدية ثقافية لرواية نقطة الانحدار

للكاتبة فاتحة مرشيد

لطيفة حمانو

باحثة في سلك الدكتوراه، مختبر الفكر الأدبي والنقدي الحديث، جامعة عبد المالك السعدي، تطوان

جميلة رزقي

أستاذة التعليم العالي، جامعة عبد المالك السعدي، تطوان

أحمد رزيق

أستاذ التعليم العالي، المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين، الدار البيضاء

الملخص

ظهرت في الفترة الحديثة خاصة في النصف الثاني من القرن العشرين مجموعة المدارس والاتجاهات النقدية والأدبية التي جعلت النصوص الأدبية مجالا لبحثها، والتي حاولت أن تتجاوز الجانب الجمالي في النصوص الأدبية إلى تسلط الضوء على الثقافة التي أنتجت هذه النصوص، ومن بين هذه المناهج نجد النقد الثقافي الذي يعتبر من أهم الظواهر التي ظهرت في فترة ما بعد الحداثة في مجال الأدب والنقد بعد انتشار للبنيوية والسيمائيات التي تعاملت مع النصوص الأدبية باعتبارها ظاهرة لسانية لها أبعاد فنية وجمالية، فجاء النقد الثقافي ليركز على الأنساق الثقافية المضمرة في النصوص الأدبية.

باعتماد النقد الثقافي سنقوم بقراءة نقدية لرواية نقطة الانحدار للكاتبة المغربية فاتحة مرشيد والتي تحكي عن مهاجر مغربي استقر بالولايات المتحدة الأمريكية، حيث اشتغل ببورصة وول ستريت إلا أنه سيفقد عمله بسبب الإدمان على الكحول بعدما تسبب لابنته في حادثة سير أودت بحياتها مما سيفقده كل ممتلكاته ليصبح متشردا.

سنقوم بدراسة القضايا الواردة في هذه الروية من قبيل التمثيلات الاجتماعية، الصدام الحضاري وصراع الأجيال كما سنقف على تجليات الكتابة النسائية في هذه الرواية.

الكلمات المفتاحية: النقد الثقافي – الهجرة– الصدام الحضاري – التمثيلات الاجتماعية – صراع الأجيال.

Abstract

In the modern era, especially in the second half of the twentieth century, a group of critical and literary schools and trends emerged that made literary texts the focus of their research. These approaches sought to go beyond the aesthetic aspect of literary texts to highlight the culture that produced these texts. Among these approaches is cultural criticism, which is considered one of the most important phenomena that appeared in the postmodern period in the field of literature and criticism. This followed the spread of structuralism and semiotics, which dealt with literary texts as linguistic phenomena with artistic and aesthetic dimensions. Cultural criticism, however, came to focus on the cultural codes embedded in literary texts.

By applying cultural criticism, we will conduct a critical reading of the novel *Noktat al-Inhidar* (The Point of Decline) by the Moroccan author Fatima Mershed, which tells the story of a Moroccan immigrant who settled in the United States. He worked on Wall Street but loses his job due to alcohol addiction after causing a car accident that takes his daughter's life, leading him to lose all his possessions and become homeless.

We will study the cultural codes in this novel, focusing on several issues addressed by the author, such as social representations, cultural clash, and generational conflict. We will also explore the manifestations of women's writing in this novel.

Keywords: cultural criticism, immigration, cultural clash, social representations, generational conflict.

تمهيد

تعد رواية نقطة الانحدار الرواية السابعة للروائية المغربية فاتحة مرشيد، صدرت عن المركز الثقافي للكتاب بالدار البيضاء سنة 2022 وهي تتكون من مائة وتسعون صفحة من الحجم المتوسط.

تعتبر الكاتبة المغربية فاتحة مرشيد من الأقلام النسائية البارزة في الساحة الأدبية المغربية، وهي شاعرة حازت على جائزة المغرب للشعر سنة 2010، وقد راكمت منجزات كثيرة سواء في الشعر أو الرواية.

إن رواية نقطة الانحدار هي الرواية السابعة لفاتحة مرشيد، وقد لاقت هذه الروايات إقبالا كبيرا من لدن القراء والنقاد على حد سواء حيث تعالج فيها طابوهات وقضايا اجتماعية.

اختارت الكاتبة فاتحة مرشيد في روايتها نقطة الانحدار أن تشد الرحال إلى بلد العم سام وأن تعرف القارئ ببعض مدنها بدءا بنيويورك ومرورا بسان فرانسيسكو وصولا إلى لوس أنجلس حيث ستلط الضوء على مجموعة من القضايا الاجتماعية والاقتصادية والحضارية.

من المعلوم أن الولايات المتحدة الأمريكية تعتبر من الوجهات المفضلة للهجرة بما تتيحه من فرص وإمكانيات للأشخاص سواء في متابعة الدراسة أو العمل والاستقرار.

تنظم الولايات المتحدة الأمريكية منذ تسعينيات القرن الماضي الهجرة العشوائية والمعروفة ب "قرعة التنوع "تمنح من خلالها تأشيرات لمواطني بعض البلدان وذلك عبر نظام إلكتروني يتم بموجبه جلب خمسين ألف مهاجر من دول مختلفة من العالم، هذه القرعة تجذب اهتمام كثير من الشباب المغربي على غرار بقية الشباب في مختلف دول المعمور قصد تحقيق الحلم الأمريكي.

فكثير من الشباب المغربي قد هاجر بموجب هذه القرعة واستقر بالولايات المتحدة الأمريكية، وهو الأمر الذي تزايد مع السنوات الأخيرة، هؤلاء المهاجرون أصبحوا محل غبطة من طرف من لم يحالفهم الحظ في الفوز في القرعة والذهاب إلى الولايات المتحدة الأمريكية، هذه الغبطة ناجمة عن عدم معرفتهم بالإكراهات التي يواجهها المهاجرون من أهمها الاغتراب والصدام الحضاري والاختلاف الثقافي مع الاخر، كما أن النظام الاقتصادي الأمريكي نظام رأسمالي يفرض ضرائب مرتفعة ويشجع الطبقة البورجوازية على حساب الطبقة الفقيرة.

لقد سعت الكاتبة فاتحة مرشيد إلى مشاركة القارئ الوجه الاخر للمجتمع الأمريكي حيث يتواجد الفقر والتشرد إلى جانب الثراء والازدهار والتقدم التكنولوجي. هذه المشاركة التي ستتيح للقارئ معرفة الواقع الأمريكي وتخفيف الانبهار الذي يشعر به كلما سمع أن فلانا قد فاز في "قرعة التنوع ".

1. المتن الحكائي لرواية "نقطة الانحدار" لفاتحة مرشيد

تحكي رواية نقطة الانحدار عن الغالي البردعي الذي غادر المغرب بعد حصوله على الباكالوريا ليلتحق بالأقسام التحضيرية في فرنسا وبعدها اشتغل في بورصة وول ستريت بمدينة نيويورك بالولايات المتحدة الأمريكية والذي انقطعت أخباره عن والده، فققر أن يطلب من صديق ابنه الغالي حميد أن يسافر للبحث عنه ومعرفة أخباره. لقد كان والد حميد يشتغل سائقا لدى الحاج البردعي وكان مغرما بابنته حليمة لكن الحاج البردعي رفض طلب زواجه منها نظرا لكونه ابن سائقه.

تفاجأ حميد أن صديقه الغالي فقد عمله وبيته في نيويورك وانتقل للعيش في لوس أنجلس، وأنه يعيش في سيارته بعدما فقد عمله وبيته، بعد رحلة البحث عنه رفقة صديقه جوردن سيلتقي حميد صديقه الغالي ليحكي له عن مأساته التي تمثلت في وفاة ابنته سارة وصديقها

الأفروأمريكي بسبب مطاردته لهما وهما يركبان الدراجة النارية مما تسبب في مصرعهما، هذا الحادث قلب حياة الغالي رأسا على عقب حيث طابت زوجته منه الطلاق وأدمن هو على الكوكايين والقمار والكحول ليفقد ممتلكاته ويبقى مشردا بدون مأوى.

عثر حميد أخيرا على صديق طفولته الغالي بمساعدة مورين وجوردن في مدينة لوس أنجلس، وهو يقاوم ليتخلص من إدمان الكحول ويحاول أن يعيد بناء نفسه من جديد بمساعدة الأم أوليفيا التي أعطته غرفة متواضعة في سطح عمارة تابعة للبعثة الكاثوليكية ليقطن فيها مقابل تعليمه الرياضيات لبعض الأطفال.

بعد لقاء الغالي بحميد سيخبره بتفاصيل الحادث المؤلم الذي تسبب في وفاة ابنته سارة حيث قام الغالي بمطاردتها وصديقها طوني وهما يركبان دراجة نارية مما سبب لهما حادثة سير أدت إلى مقتلهما. سيخبره حميد عن أخبار عائلته في المغرب، وسيتفق معه على الرجوع إلى المغرب خاصة بعد وفاة والده والذي لم تكن تربطه به علاقة جيدة والذي كان سببا رئيسيا في هجرته للخارج.

بعد عودة حميد من الولايات المتحدة الأمريكية سيتزوج من حليمة التي حصلت على الطلاق من زوجها وسينتظران رجوع الغالي من المهجر لكن ظروف كورونا وفرض الحجر الصحي اضطره للبقاء في الولايات المتحدة الأمريكية، فأصيب بفيروس كورونا مما عجل بوفاته. قررت حليمة شقيقة الغالي وزوجها حميد تنفيذ مشروع الغالي في إنشاء جمعية للعناية بالمتشردين وفاء له.

2. الأنساق الثقافية الواردة في رواية نقطة الانحدار

1.2. الصدام الحضاري

من بين الروايات العربية التي تناولت الصراع الحضاري بين الشرق والغرب نجد رواية موسم الهجرة إلى الشمال للكاتب الطيب صالح، والتي سعى فيها الكاتب السوداني إبراز الصراع الثقافي والحضاري بين الشرق والغرب عبر شخصية محمود سعيد الذي رحل إلى لندن لإكمال دراسته واستقر هناك والذي سعى إلى تكوين هوية غربية بعيدا عن جذوره العربية، هذا النزوع نحو الانغماس في المجتمع الإنجليزي لم يتأتى له بفعل التأثيرات العميقة التي تركها الاستعمار في شخصيته مما جعله يشعر بالاغتراب، ويعيش صراعا داخليا بين هويته العربية وبين ثقافته الغربية التي تدعي التفوق والمركزية، "فقد كان دائم الشعور بالوحدة والضياع وسط حضارة غربية خالية من روحانيات الشرق جعلته معقدا غير قادر على الانسجام معها والذوبان والانصهار فيها إلا إذا تجرد من أصالته وتراثه "[1] مما يدخل محمود سعيد في عملية انتقامية من هذا الغرب المتفوق وذلك باستدراج النساء للوقوع في حبه ثم التخلي عنهن تعذيبا لهن وانتقاما منهن، في محاولة منه لإثبات تفوقه على الغرب

فأزمة مصطفى سعيد متعلقة بالذات نفسها "فالمشكلة الحقيقية ليس في صراع الغرب والشرق بقدر ما هي في الذات المتصدعة التي عجزت أن تتصالح مع نفسها قبل أن تواجه الاخر "[2]

في رواية نقطة الانحدار للكاتبة فاتحة مرشيد يمكن أن نجزم أن نقطة الانحدار في حياة البطل الغالي البردعي هي الصدام الحضاري، صدام الثقافة والمعتقد والقيم الإسلامية والعربية في مواجهة القيم الغربية السائدة في الولايات المتحدة الأمريكية.

لقد ارتبطت سارة ابنة الغالي بشاب" أفرو أمريكي في سنته الأخيرة بالثانوية يدعى طوني فاره القامة ولا يخلو من وسامة يحمل وشما يمتد على طول ذراعه وقرطا في أذنه اليمنى واخر في شفته السفلى"[3] هذا الأمر رفضه الغالي رفضا باتا عكس ريبيكا زوجته الأمريكية التي رأت الأمر عاديا "حيث فكرت أن هذه علاقة ستمر وستتبعها علاقات وابتسمت من بريق الحب الذي يملأ عيني ابنتها "[4].

إن رد فعل ريبكا زوجة الغالي تجاه ارتباط ابنتها بالشاب طوني هي ردة فعل طبيعية لأم أمريكية نتيجة نشأتها في مجتمع غربي يؤمن بالحريات الفردية وبالحب خارج إطار الزواج، وفي الرواية إشارة لسلبيات الزواج المختلط الذي يقدم عليه كثير من المهاجرين الذين يرتبطون

بشريك ينتمي لبلد الإقامة وكثيرا ما تنتهي هذه الزيجات بالانفصال نتيجة الاختلافات الثقافية والحضارية بين الطرفين، فلو كان الغالي متزوجا من امرأة مغربية أو مسلمة من بلد اخر غير المغرب فأكيد أنها لن تقبل أن تكون لابنتها علاقة عاطفية بأي شاب. يبدو رأي ريبكا مختلفا عن رأي الغالي في طريقة تعامل كلا منهما مع العلاقة التي ربطت ابنتهما سارة بزميلها طوني، فعندما غضب الغالي قام بصفع ابنته وهو التصرف الذي استنكرته زوجته "إنني لست في المغرب ولا يحق لي أن أرفع يدي على ابنتها التي من حقها مقاضاتي قانونيا على تصرف همجي كهذا "[5]

لقد تشبثت سارة برأيها ورفضت أن يتدخل والدها في اختيارها، نعته بالمتخلف والعنصري والمتسلط مما اضطره في لحظة غضب أن يصفعها مما زاد من التوتر بينه وبين زوجته وابنته، ولما يئس من تخلي ابنته سارة عن علاقتها بطوني حاول الغالي أن يتحدث معه ليبتعد عن ابنته إلا أن طوني كان مصرا على الاستمرار في علاقته بسارة بل قال له بلهجة تنم عن التحدي: "انتهت المقابلة، أنصحك بتغيير النظارات التي جلبتها من المغرب لتنظر إلى الواقع المعيش هنا. ..نيويورك لا تقتصر على وول ستريت " هذا الأمر جعل الغالي يستشيط غضبا فهو رغم أنه درس في فرنسا وعاش في الولايات المتحدة الأمريكية إلا أنه لم يستطع أن يتخلى عن أفكاره التي نشأ عليها في بلده المغرب، ولم يتقبل أن تكون لابنته علاقة غرامية على غرار العلاقات التي تربط الفتيات الأمريكيات مع شباب في نفس عمرهن. فالأب المغربي المحافظ على أسرته وشرفه مازال حاضرا في شخصية الغالي رغم عيشه في المجتمع الأمريكي وهو كما ذكر لصديقه حميد كان مؤمنا بالمثل المغربي "الرجل كيموت على ولادو أو على بلادو "هذا المثل المغربي المتجذر في الذاكرة الجمعية المغربية.

بعد مرور سنوات على هذه الحادثة مازال الغالي يتذكر الحادث الأليم حيث يقول لصديقه حميد: "لم تسعفني الرياضيات على تخطي موقف تحداني بمعادلات لم تكن لي في الحسبان. ..إنها ابنتي الوحيدة وقرة عيني وفخري فكيف أسمح لصعلوك أسود أن يستغل براءتها وقلبها النقي ويأخذها مني ليدمر حياتها ؟"[6]

لقد كانت القشة التي قصمت ظهر البعير هي المطاردة التي قام بها الغالي لابنته وصديقها وهما يركبان الدراجة النارية مما تسبب لهما في حادثة سير أدت إلى مقتلهما معا، مما جعل زوجته تطلب منه الطلاق ويسقط هو في براثن إدمان الكوكايين والقمار مما جعله يفقد أمواله وعمله ليجد نفسه متشردا بدون مأوى. يحكي الغالي هذا الانحدار لصديقه حميد: "فما كان علي إلا أن أستبدل الوول ستريت بالكازينو فخسرت ما كدست من أموال وما تبقى عن الطلاق واستبدلت مخدر الكوكايين الباهظ الثمن بما هو أبخس مستعينا بالكحول، هو انحدار دون هوادة ؟"[7].هذا الانحدار الذي دام ثلاث سنوات قضاها الغالي في الشارع مدمنا على الكحول دون عمل أو مأوى إلى حين لقاءه بالأم أوليفيا التي ساعدته على الخروج من دوامة الإدمان والبطالة.

2.2. التمثيلات الاجتماعية

يعتبر كارل ماركس من أبرز المفكرين الذين تطرقوا للصراع الطبقي، وقد لاقت نظريته انتشارا واسعا يمتد إلى عصرنا الحالي، فهو يميز بين الطبقة البورجوازية التي تتحكم في الثروة ووسائل الإنتاج وبين طبقة العمال أو البروليتاريا والتي يتم استغلالها من طرف الطبقة البورجوازية، وفي هذا الصدد يصرح كارل ماركس أن "أسلوب الحياة المادية هو شرط العملية الاجتماعية والسياسية والعقلية بوجه عام وليس وعي الناس هو الذي يحدد وجودهم لكن وجودهم الاجتماعي هو الذي يحدد وعيهم "[8].

يبدو التباين الطبقي جليا في رواية نقطة الانحدار من حيث انتماء البطلين إلى طبقتين مختلفتين فالبطل حميد ينتمي إلى طبقة فقيرة، فوالده يشتغل سائقا خاصا لدى والد حليمة الفتاة الغنية التي وقع في غرامها والتي هي شقيقة صديقه الغالي الذي هاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية.

لقد حال التباين الطبقي دون زواج حميد وحليمة حيث رفض الحاج البردعي أن يزوج أميرته المدللة لحميد ونعته بالمتسلق والخائن الذي خان ثقته. يتذكر حميد الموقف بحزن عميق: "كان الرفض حاسما وقاسيا وجارحا جعل عمر الصمود قصيرا جدا وعجل بقران حليمة ورضوان وإحالة والدي على التقاعد "[9].

إن اندفاع حميد في عشق حليمة، وصغره سنه وقلته تجربته في الحياة جعله متفائلا بخصوص موافقة والدها على الارتباط بها بسبب تفوقه الدراسي واشتغاله أستاذا جامعيا، الأمر الذي كان والده متأكدا منه حيث رفض أن يفاتح الحاج البردعي في الموضوع "حفاظا على كرامته وتفاديا للإهانة قائلا: رحم الله امرأ عرف قدر نفسه "[10].

لقد فضل الحاج البردعي أن يزوج حليمة إلى طبيب أسنان درس في رومانيا وينتمي لعائلة ميسورة تنتمي لنفس طبقتهم، وهو تكريس للتباين الطبقي داخل المجتمع المغربي.

إن التباين الطبقي ظاهرة تعرفها جميع بلدان العالم ففي الولايات المتحدة الأمريكية نجد الرواية تسلط الضوء على الفوارق الاجتماعية التي يعرفها المجتمع الأمريكي، ففي نيويورك "الأيقونة الاقتصادية العالمية الجبارة ورمز الرأسمالية الأمريكية يمكن أن تجد سحنات وأعراق وثقافات مختلفة، مما يجعلها مدينة عالمية تؤسس للألفة حين تجمع بين الثقافات والهويات المنصهرة فيها دون أن يجبرها أحد على التخلي عن أصولها "[11].هذا الانصهار بين الهويات والثقافات الذي نجده في الولايات المتحدة الأمريكية أساسه هو ما يملكه الفرد من أموال وممتلكات والتي تتحكم في تصنيفه في الطبقة الاجتماعية المناسبة له.

يلاحظ حميد تغير المشاهد بين مانهاتن أرقى أحياء نيويورك وهارلم أفقر أحيائها، وهو في طريقه مع بواب العمارة التي كان يقطن بها صديقه الغالي للقاء مورين التي ستدله على صديقه.

يقول حميد: "دلفنا من باب يقود إلى الإيست ساید وبعد زهاء عشرين دقيقة وسط البنايات الفخمة بدأ المشهد يتغير ليصبح الرصيف أقل نظافة موقعا خروجنا من منهاتن. ونحن على مشارف هارلم عرج كارلوس وأنا أتبعه كظل تائه إلى ساحة في الهواء الطلق تبدو مرأبا للسيارات"[12].

تذكر الرواية الفوارق الطبقية في كل المدن الأمريكية التي زارها حميد بحثا عن الغالي بدءا من نيويورك مرورا بسان فرانسيسكو ووصولا إلى مدينة لوس أنجلس مدينة الملائكة التي تحولت إلى مدينة للشياطين بسبب كثرة المشردين وطغيان الفوارق الاجتماعية، وانصراف كل فرد إلى مصالحه الخاصة دونما التفات إلى غيره الذي يمر بظروف صعبة سواء كان هذا الفرد صديقه أو زميله أو مقربا منه، ففي الحانة حين التقى حميد بشخص حديث العهد بالتشرد أخبره أنه لا يستطيع البوح لأي كان بمشاكله باستثناء الطبيب النفسي الذي يأخذ أجرا مقابل الاستماع إليك. يقول حميد:"عز على نفسي كيف أنه يفضل أن يحكي لغريب على أن يفضفض لصديق أو يعتمد عليه. أي مجتمع هذا الذي يجعل المال أكبر قيمة لديه تنتفي خلفها قيمة الإنسان ؟"[13].

إن البوح في المجتمع الأمريكي رهين بوجود طبيب نفسي، هذا الأمر الذي نجده متاحا في مجتمعنا المغربي حيث يمكن للإنسان أن يبوح بمشاكله لأصدقائه أو أفراد من عائلته الذين يستمعون إليه ويشاركونه مخاوفه ومشاكله ويساعدونه على إيجاد الحلول لها، وهذه من بين الأشياء التي ينتبه إليها المغتربون المغاربة ليس في الولايات المتحدة الأمريكية وحدها بل في دول الغرب بصفة عامة.

3.2. صراع الأجيال دافع للهجرة

تتعدد دوافع الهجرة وتختلف وإن كان العامل المادي هو أحد أهم دواعي الهجرة إلا أن سبب هجرة الغالي لم يكن ماديا لأن والده كان ثريا إلا أن الغالي لم تكن تربطه علاقة جيدة بوالده مما جعله يقرر الهجرة ابتعادا عن سلطة والده وتحقيقا لحلمه في الالتحاق بالأقسام التحضيرية في فرنسا.

لقد اتسمت العلاقة بين الغالي ووالده بالصراع وعدم التفاهم ذلك أن الغالي كان يحمل والده مسؤولية انتحار أمه وهو في سنته الرابعة مما جعله حاقدا على والده الذي حرمه من وجود الأم في حياته يقول الغالي: "كنت أشعر أحيانا بعدم مقدوره النظر في عيوني. ألأني كنت شاهد عيان على فجيعة أمي؟ أكانت نظراتي ترسل إليه في غفلة مني سهام عتاب ما؟"[14]

يذكر الغالي لصديقه حميد أنه كان يغبطه على العلاقة القوية التي كانت تربطه بوالده عكسه تماما وهو الأمر الذي زاد من رغبته في الهجرة: "كانت علاقتك بوالديك دليلا صارخا على علاقتي المأساوية بوالدي. ..أفهم لماذا لم تكن لك رغبة في الرحيل عن البلد كان ارتباطك بأسرتك قويا أما أنا فلم يكن ثمة ما يقنعني بالبقاء "[15]

يذكر الغالي أن والده لم يعبر عن رضاه عنه ولم يعبر له يوما عن حبه له "عدم رضاه المزمن كان انعكاسا لعدم رضاه عن نفسه، قالت لي مرة عمتي لالة نعيمة: هو ليس قاسيا عليك هو قاس على نفسه. ..إنه يحبك لكنه لا يحب نفسه " [16]

عن والده: " أعتقد أن والدي فجر بعض غضبه من الدنيا علي وأصابتني عدوى الغضب. ..فأصبحنا مع الوقت غرباء "[17]

إن الصراع بين الغالي ووالده انتقل في مرحلة لاحقة إلى صراع بينه وبين ابنته سارة التي ارتبطت بطوني ورفضت أن يتدخل والدها في اختياراتها

رغم هجرة الغالي إلى الولايات المتحدة الأمريكية، إلا أنه وافق على العودة إلى أرض الوطن، وقد كان ينوي إقامة جمعية تعنى بالمشردين وتوفر لهم الرعاية الملائمة.

انتظر حميد قدوم صديقه الغالي إلى أرض الوطن لكنه تأخر في العودة بسبب إغلاق الحدود بين جميع الدول بسبب انتشار فيروس كورونا سنة ألفان وعشرون، وقد أمسى حلم الغالي هو العوده إلى بلده بعدما كان حلمه هو الهجرة خارج بلده يقول حميد مرددا على لسان الغالي أغنية بغيت بلادي لمجموعة لمشاهب التي اشتهرت في المغرب إبان فترة الثمانينات:

"بغيت بلادي ميمتي راه الدنيا ما تدوم

بغيت بلادي ميمتي راه الغربة ما تدوم "[18]

3. تجليات الكتابة النسائية في رواية نقطة الانحدار

إن الإبداع الإنساني تعبير عن الذات وامالها وآلامها، إنه تعبير عن التطلعات والانتظارات، ولا يخرج الإبداع النسائي عن هذه القاعدة، فالكتابة النسائية تعبير عن خصوصية المرأة والتي تسميها الناقدة رشيدة بنمسعود الحساسية النسائية و"التي تتميز بحضور نوعي لتيمة المسالة النسائية، إذ تقدم للمتلقي مجموعة من الصور اليومية التي تلامس بعض ملامح الوضع النسائي "[19].

من بين السمات الموضوعية المميزة للكتابة النسائية الواردة في رواية الانحدار:

1.3. اكتئاب ما بعد الولادة

لقد ذكرت الكاتبة في الرواية أن أم الغالي قد رمت بنفسها من الشرفة ونتج عنه موتها، وهو الحادث الذي كان السبب في توتر العلاقة بين الغالي ووالده، وكان انتحار الأم ناتج عن إصابتها بمرض نفسي بعد ولادة ابنتها حليمة مما جعلها تدخل مصحة للأمراض العقلية وتغادرها بعد تحسن حالتها التي كانت تستوجب الاستمرار في أخذ الدواء وهو الأمر الذي لم تلتزم به مما جعلها لتقي بنفسها من الشرفة بعد دخولها في نوبة هلوسة.

إن انتحار والدة الغالي وحليمة كان سرا لم تخبر به الأسرة أحدا فحميد رغم صداقته القديمة بالغالي لم يكن على علم بهذا الحدث إلى أن أخبره به عندما التقيا في الولايات المتحدة الأمريكية في سياق حديثه عن سبب التوتر الذي كان بينه وبين والده الراحل.. يحكي الغالي بحزن لصديقه حميد: "بعد ولادة حليمة أصيبت ماما بمرض عقلي يدعى ذهان ما بعد الولادة أو الذهان النفاسي وهو مرض نادر يختلف عن اكتئاب ما بعد الولادة. .يبدو أنها دخلت في حالة من الارتباك الشديد وهوس وهلوسة كانت تشكل خطرا عليه وعلى الرضيعة "[20].

لقد كانت إشارة الروائية إلى الاكتئاب الذي يصيب المرأة بعد الولادة إشارة موفقة إذ أنه شأن نسائي صرف، فكثير من النساء لا تنتبهن له مما يدخلهن في حالات نفسية تنتهي بالطلاق أو الانتحار أو البقاء في حالة من العذاب النفسي للمرأة وكذا محيطها الأسري، فانتماء الروائية إلى مجال الطب يجعل منها طبيبة تشخص حالات شخصياتها النسائية قصد إيجاد العلاج المناسب.

2.3. الجسد الأنثوي

لقد توسلت الكاتبة بالجسد الانثوي في الرواية خدمة لأحداث الرواية وإمعانا في بناء الشخصيات النسائية فلم يكن الجسد حاضرا باعتباره وسيلة إغواء أو استعراض لمفاتن المرأة وحضور الجسد حضورا عفيفا يدحض اراء بعض الدارسين "الذين تحدثوا عن أدب المرأة في شقه السردي ويلصقون نعت الأدب الجنسي أو الكتابة البورنوغرافية أو الإيروتيكية بهذا الذي تأتي به المرأة "[21] وهذا في اعتقادنا رأي لا يستند إلى أدلة كافية فمن خلال دراستنا لكثير من الأعمال القصصية والروائية النسائية المغربية وجدنا أن الكتابات من هذا النوع قليلة جدا وبالتالي لا يمكن تعميم هذا الحكم.

تتطرق رواية نقطة الانحدار للمعاناة التي عاشتها حليمة في زواجها بالطبيب الذي ينتمي لطبقتها الاجتماعية، والذي نال موافقة والدها الذي رفض زواجها بمن تحب فعاشت حياة يطبعها الحرمان من الحب والسعادة، والتي حاولت التأقلم معها بقدوم ابنها الوحيد الذي جعلها تستمر في هذا الزواج إلى أن يرحل ابنها إلى فرنسا لدراسة الطب لتجد نفسها وحيدة مع زوجها لا تربطها به أية رابطة لتتعمق عزلتها في وقت "يشرع الزمن في رسم خرائطه على جسدها بينما شبح الاكتئاب يفتح نافذة الأرق على لياليها الباردة "[22].

من ضمن الأمور المرتبطة بالجسد الأنثوي نجد الرواية تشير للتغيرات الهرمونية التي حدثت لحليمة فكثير من الأبحاث العلمية تشير إلى أن المرأة تتعرض لعدة تغيرات هرمونية خاصة بعد اقتراب انقطاع الطمث وهي تغيرات تحمل معها تغيرات نفسية تقول الساردة متحدثة عن حليمة: "كانت تلبي رغبات الزوج قبل أن تنضاف إليها رغبات الابن والان لا أحد في حاجة إليها فما هي يا ترى رغباتها الخاصة؟ في نفس الوقت تبدأ هرمونات أنوثتها في التعب منها "[23]

حضور الجسد في رواية نقطة الانحدار حضور مقترن بالمعاناة، بدءا من ولادة حليمة وإصابة أمها بمرض ناتج عن النفاس، وكذلك حليمة التي بدأت تلاحظ ذبول جسدها بعدما ذبلت روحها مع زوج لا يحبها ولا يعيرها الاهتمام الذي تستحقه.

عانت والدة حميد أيضا من ألم جسدي سبب لها ألما نفسيا جراء إجهاضها المتكرر ورغبتها في الإنجاب حيث يحكي حميد لصديقه الغالي قائلا: " جئت بعد بعد ثلاث حالات حمل انتهت كلها بإجهاض مؤلم لوالدتي كنت قاهر الموت ومع ذلك لم أعش كوني الابن الوحيد كامتياز "[24]. معاناة والدة حميد مع جسدها ستستمر في كبرها أيضا بعد مرض جعلها مقعدة تقول السادرة: "أصرت على أداء واجب العزاء متنقلة بكرسيها المتحرك لتضم حليمة إلى صدرها الرحب وتتقاسما البكاء في صمت ".[25]

أما مورين التي تعيش حياة التشرد، فهي تبذل جهدا من أجل الحفاظ على جسدها تقاوم البرد والجوع والعطش والمرض، كما تحمل في سيارتها مضرب بيسبول وعلبة غاز مسيل للدموع للدفاع عن نفسها، فهي "رغم أمكانياتها المادية الضئيلة جدا منخرطة في ناد للرياضة لتتمكن من استعمال الدوش لتكون دائما نظيفة بحيث لا أحد من رفاقها في الشغل يشك في وضعيتها "[26].

3.3. معاناة المرأة

سنبدأ معاناة الشخصيات النسائية في رواية نقطة الانحدار من شخصية حليمة التي بدأت معاناتها منذ صغرها بانتحار أمها ونشأتها يتيمة الأم، كما عانت من الحرمان العاطفي جراء إصرار والدها على رفض زواجها بمن تحب وتزويجها زواجا تقليديا عانت فيه من الوحدة والإهمال والخيانة، إلا أن معاناتها تعمقت أيضا بعدم تقدير ابنها لاهتمامها به وسؤالها المستمر عليه.

تصف السادرة حالة حليمة بعد سفر ابنها إلى فرنسا بقولها: " تتعمق عزلتها وتصبح حياتها عبارة عن انتظارات: انتظار هاتف من ابنها الذي بدأ حياة أخرى ويزعجه قلقها الدائم عليه، انتظار هاتف من زوج تكثر انشغالاته وتتعدد بتعدد عشيقاته "[27]. لكن حليمة ستضع حلا لمعاناتها وذلك بطلبها الطلاق من زوجها بعد وفاة والدها لتعيش ما تبقى لها من العمر بالطريقة التي ترغب فيها بعيدا عن تعاستها الزوجية وبعيدا عن توصيات المجتمع التقليدي.

من ضمن ما تطرقت إليه الرواية معاناة النساء المتشردات في الولايات المتحدة فالكاتبة المغربية فاتحة مرشيد أبت إلا أن تسلط الضوء على المعاناة التي تعيشها النساء اللواتي جعلتهن ظروف الحياة عرضة للبقاء في الشارع، فمعاناتهن تكمن في أنهن "يتعرضن لشتى أنواع الاعتداء أقلها التعنيف والاغتصاب. ..فمعدل الوفيات في صفوف النساء الهوملس يضاعف عشر مرات معدل الوفيات عند غير الهوملس، أما حالات الحمل فتلك مأساة أخرى "[28].فمن ضمن الشخصيات النسائية التي عبرت عن معاناة هذه الفئة شخصية مورين صديقة الغالي التي دلت حميد على موقع جوردن الذي سيرافقه إلى لوس أنجلس بحثا عن الغالي.

تعيش مورين في سيارتها بعدما تركها حبيبها و" لم تستطع لوحدها أن تسدد قروض البيت الذي وعد هو بتحمل نصفها فحكمت عليها المحكمة بالإفراغ الشيء الذي يحول بينها وبين إمكانية طلب قرض في المستقبل "[29]، فوجدت نفسها تعيش في سيارتها في مرأب في الشارع، وهي تقاوم للمحافظة على إنسانيتها فهي تعمل في دار للعجزة ومنخرطة في نادي رياضي لتتمكن من الاستحمام.

تذكر الرواية أن المرأة التي تعاني من التشرد تعاني من الفقر لدرجة أن عليها الاختيار بين شراء فوطة صحية او شراء الطعام وهي معاناة من الفقر يصعب تصديقها في مجتمع يعد هو الأول عالميا في الاقتصاد العالمي، لكن الروائية وقفت على هذه المعاناة وذكرتها في الرواية.

من الحكايات الثانوية الواردة في رواية نقطة الانحدار والتي أثثت بها الروائية فضاء السرد، حكاية الأمريكية ميريل التي بحث عنها جوردن بمعية حميد ليسلمها رسالة من ابنها جوردن الذي توفي قبل ثلاث سنوات، والذي كان بدوره مشردا في سان فرانسيسكو، تحمل الرسالة مفاجئة صادمة لميريل تتمثل في اعتراف ابنها أنه كان يتعرض للاغتصاب من طرف زوجها عندما كان طفلا وهو ما جعله يتمرد عليه عندما كبر حيث طعنه بسكين حين عاد يوما للبيت ووجده يعنف أمه مما كاد يتسبب في مقتله.

هذا الاعتراف المتأخر من جوردن سبب حزنا عميقا لميريل وندما شديدا على عدم انتباهها لما يجري لابنها خاصة أنها كانت تعاني من التعنيف والاستغلال المادي من طرف زوجها.

لقد كان للرسالة التي حملها جوردن وحميد لميريل دور أساسي في إنهاء معاناتها حيث طلبت من جوردن وحميد البقاء معها إلى حين حضور زوجها لتقوم بطرده من البيت بعدما واجهته بما ورد في رسالة ابنها قائلة: "ضع المفاتيح فوق الطاولة، هذه حقيبتك خذها وارحل من هنا ولو عدت أنا من سيطعنك مرة أخرى "[30].

ترد عرضا في الرواية معاناة الأم أوليفيا التي ساعدت الغالي في الخروج من براثن الإدمان، تعود سبب معاناة الأم أوليفيا إلى وفاة ابنها بسبب جرعة زائدة من المخدرات، فقد كانت تشتري له المخدرات لكيلا يدخل في حالة العنف بدل علاجه مما سبب لها ندما ومعاناة حاولت التغلب عليها بمساعدة المشردين ومد العون لهم ليتخلصوا من الإدمان أولا ليستطيعوا التغلب على وضعية التشرد. تقول الأم أوليفيا لحميد: "وجدت في هذا الشغل ما يخفف عني قليلا ويعطي معنى لاستمراري في هذه الحياة، إنها مشيئة الرب "[31].

تركيب

إن رواية نقطة الانحدارللكاتبة فاتحة مرشيد من الروايات النسائية المغربية التي حملت على عاتقها تسليط الضوء على المهاجرين والمشردين في الولايات المتحدة الأمريكية، وقد امتازت بمعالجتها لمجموعة من القضايا الاجتماعية والحضارية والإنسانية.

لقد كان الصدام الحضاري هو نقطة انحدار البطل الغالي الذي يتمتع بذكاء خارق مكنه من النجاح في عمله في بورصة وول ستريت لكنه لم يستطع الاندماج في المجتمع الأمريكي، ولم يتقبل أن تكون لابنته علاقة غرامية بشاب يرافقها إلى البيت، كما يحدث في العائلات الأمريكية ويعتبر حدثا عاديا.

لقد تطرقت الرواية إلى الفوارق الاجتماعية في المجتمع المغربي وكذا المجتمع الأمريكي، كما تطرقت لذلك إلى صراع الأجيال الذي يعتبر صراعا أزليا في كل المجتمعات الإنسانية.

لقد كان للمرأة حضور قوي داخل رواية نقطة الانحدار إذ نبشت الرواية في مجموعة من المواضيع النسائية من قبيل الجسد الأنثوي، الإجهاض، اكتئاب ما بعد الولادة، التغيرات الهرمونية لدى المرأة.

كما ركزت الرواية على معاناة المرأة سواء في المجتمع المغربي من خلال شخصية حليمة وأم حميد أو في المجتمع الأمريكي من خلال مورين وميريل والأم أوليفيا.

يمكن القول أن الروائية فاتحة مرشيد قد وجدت حلا لمعاناة المرأة في رواية نقطة الانحدار، فوجدت حلا لمعاناة حليمة، ومورين وميريل والأم أوليفيا، حتى والدة حميد المقعدة والتي تعاني من الوحدة وجدت سعادتها في زواج ابنها من حليمة التي انست وحدتها ورعتها. إلا أن الرواية لم تتطرق لمعاناة زوجة الغالي أو ابنته، فلم تتح لهما الرواية إلا مساحة صغيرة من الحكي لتعبرا عن رفضهما لتعامل الغالي مع ارتباط سارة وطوني.

رغم انتقاد الغالي لسلطوية أبيه إلا أنه في الأخير اعترف أنه كرر نفس الأخطاء مع ابنته سارة وسلك نفس سلوك أبيه، بل إن موت سارة في الرواية هو انتصار لقرار الغالي التفريق بين ابنته وطوني والذي كان يتوق إليه، إنه انتصار لقيم الشرق على قيم الغرب لدى كثير من المهاجرين. هذا الانتصار الذي كان له تداعيات كبيرة على حياة الغالي وكأن الروائية تريد أن تخبرنا بالثمن الباهظ للصدام بين ثقافتين مختلفتين.

الهوامش:

[1]مراد مزعاش، تجليات الصراع الحضاري في رواية موسم الهجرة إلى الشمال، مجلة إشكالات في اللغة والأدب، المركز الجامعي لتامنغست، الجزائر، العدد الأول دجنبر 2012، ص 35

[2]نور الدين قارة، انشطار الذات وأزمة الوعي في رواية موسم الهجرة إلى الشمال، مجلة الباحث، منشورات مختبر اللغة العربية كلية الآداب، جامعة الأغواط، الجزائر، 2009، ص 169

[3]نقطة الانحدار، فاتحة مرشيد، ص 125

[4]نفسه ص 125

[5]نفس المرجع ص 126

[6]نفسه، ص 126

[7]نفس المرجع ص 133

[8]كارل ماركس، نقد الاقتصاد السياسي، ترجمة راشد البراوي، دار النهضة العربية، الطبعة الأولى، 1969، ص 3

[9]فاتحة مرشيد، نقطة الانحدار، المركز الثقافي للكتاب، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى 2022، ص 67

[10]نفس المرجع ص 67

[11]عبد الرزاق المصباحي، الأنساق السردية المخاتلة، مؤسسة الرحاب الحديثة، بيروت، الطبعة الأولى 2017 ص187

[12]فاتحة مرشيد، نقطة الانحدار، ص 28

[13]نفس المرجع، ص 104

[14]نفس المرجع، ص 157

[15]فاتحة مرشيد، نقطة الانحدار، مرجع مذكور، ص 142

[16]فاتحة مرشيد، نقطة الانحدار، مرجع مذكور، ص 156

[17]فاتحة مرشيد، نقطة الانحدار، مرجع مذكور، ص 147

[18]فاتحة مرشيد، نقطة الانحدار، مرجع مذكور، ص 177

[19]رشيدة بنمسعود، جمالية السرد النسائي، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، الطبعة الأولى 2006، ص 41

[20]نقطة الانحدار ص 145

[21]مصطفى سلوان، صحوة الفراشات: قراءة في السرد النسائي المغربي المعاصر، مكتبة سلمى الثقافية تطوان الطبعة الأولى 2017 ص 118

[22]نقطة الانحدار، ص165

[23]نقطة الانحدار، ص165

[24]نقطة الانحدار ص 143

[25]نقطة الانحدار ص 98

[26]نقطة الانحدار ص 34

[27]نقطة الانحدار، ص 164

[28]نقطة الانحدار، ص 107

[29]نقطة الانحدار ص 33

[30]نقطة الانحدار ص85

[31]نقطة الانحدار ص108